

## تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كَيْبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُلِّ  
 مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ  
 ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ  
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ، وبالله التوفيق .

وأما قوله : ﴿ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ أى : هى محكمة فى لفظها ، مفصلة فى معناها ، فهو كامل  
 صورة ومعنى . هذا معنى ماروى عن مجاهد ، وقتادة ، واختاره ابن جرير ﴿ من لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أى : من  
 عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه ، الخبير بعواقب الأمور . ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى : نزل هذا القرآن  
 المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ  
 لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاعُوتِ ﴾  
 [النحل: ٣٦]

وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أى : إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن  
 اطعتموه ، كما جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ صعد الصفا ، فدعا بطون قريش الأقرب  
 ثم الأقرب ، فاجتمعوا ، فقال : « يا معشر قريش ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ، الستم  
 مصدقى ؟ فقالوا : ما جرنا عليك كذبا . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (١) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ أَسْتَعْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُبَوُّوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أى :  
 وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على  
 ذلك ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أى : فى الدار  
 الآخرة ، قاله قتادة ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ  
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] ، وقد جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن  
 تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجزت بها ، حتى ما تجعل فى فى امرأتك » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ : هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ،  
 وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة ، ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أى : معادكم يوم القيامة ، ﴿ وَهُوَ  
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه ، وانتقامه من أعدائه ، وإعادة  
 الخلاق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب ، كما أن الأول مقام ترغيب .

(٢) البخارى (١٣٧٣) ، ومسلم (٥/١٦٢٨) .

(١) البخارى (٤٩٧١) .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿٥﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. روى البخارى عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم (١). وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعنى به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغيرهم: أى أنهم كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فاعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيُخْفِيَ، فَهَمَا يُكْتَمُ اللَّهُ يَعْلَمُ

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ نثى صدره، وغطى رأسه فأنزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٦﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى: يعلم أين مُتَّهَى سيرها فى الأرض، وأين تآوى إليه من وكراها، وهو مستودعها. وقال ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى: حيث تآوى، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصليب، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، نقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِنِّي رَبَّهُمْ بِحُجُورٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ بِآيَاتِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَيْنَا أُمَّةً مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وأن عرشه كان

على الماء قبل ذلك، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء (١)». وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك». وقال: «يد الله ملائ لا يغيضها نفقة، سحاه الليل والنهار» وقال «أفرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغيض مافى يده، وكان عرشه على الماء، وبه الميزان يخفض ويرفع (٢)». وروى الإمام أحمد عن أبي رزين - واسمه لقيط بن عامر بن المنتقى العقيلي - قال: قلت: يارسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق لخلقنا؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك». وقد رواه الترمذي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن (٣).

وقال مجاهد: «وكان عرشه على الماء» قبل أن يخلق شيئا. قاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة: ينشكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش هرشا لارتفاعه.

وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء»: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقوله تعالى: «ليتوكنكم أئكم أحسن عملا» أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبده وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» [ص: ٢٧]، وقال تعالى: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إنا لا نرجعون. قلنا الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» [الذاريات: ٥٦].

وقوله: «ليتوكنكم أئكم أحسن عملا» أي: ليختبركم «أئكم أحسن عملا» ولم يقل: أكثر عملا، بل «أحسن عملا»، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: «وإن قلت إنكم مشركون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين»: يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: «وإن سألتهم من خلقهم ليقولن الله» [الزخرف: ٨٧]، «وإن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله» [التكوير: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداة، كما قال تعالى: «وهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: «ما خلقكم ولا بحكم إلا كنفسا واحدة» [لقمان: ٢٨].

وقولهم: «إن هذا إلا سحر مبين» أي: يقولون كفرا وعنادا: مانصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ماتقول.

(٢) البخاري (٤٦٨٤).

(١) مسلم (١٦/٢٦٥٣).

(٣) المسند (١١/٤)، والترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢).

وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّغْنُوذَةٍ لِّقَوْلِنَا مَا نَبْهِيهِ﴾ يقول تعالى: ولئن أخرنا العذاب والمؤاخظة عن هؤلاء المشركين إلى أجل محدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا: ﴿مَا نَبْهِيهِ﴾ أى: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجايابهم قد آلفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله فى هذه الآية: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّغْنُوذَةٍ﴾ وقوله فى يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] ، وتستعمل فى الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ، وتستعمل فى الملة والدين، كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، وتستعمل فى الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَبِلُوا بِنَبِيِّهِمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] .

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما فى صحيح مسلم: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (١) .  
وأما أمة الاتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفى الصحيح: «فأقول: أمتى أمتى» (٢) .

وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ يُحَدِّثُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْتَدُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩] ، وقال تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَانِتَةٌ لِلَّهِ تَحْتِ آيَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلَتْ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أُمَّةٌ يَخْتَارُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] .

﴿وَلَيْنَ آدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورًا ۖ وَلَئِن آدَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَارٍ مَّسَّتَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۗ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضى الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرحب بعد تلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ أى: يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضيِّم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بطرف فخور على غيره.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعافية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصَب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفرَّ الله عنه بها من خطاياها» (٣) ، «والذى نفسى

بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبّر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن ﴿١﴾ ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَالصَّبْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [سورة الصبر] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ الآية [المارج: ١٩ - ٢٢] .

﴿ فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقُ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُفِثَ قَوْلُ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ . مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴿٢﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُنَزَّلُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْنَوِيًّا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] . فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشدته إلى الا يضيّق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثبته عن دعائهم إلى الله عز وجل آتاه الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَوَلَدٌ نَّعَمَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِقُ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى : لقولهم ذلك، فإنما انت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، لان كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس وتزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى : فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وَأَن لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمُ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾

قال ابن عباس فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون فقيرا ، يقول : من عمل صالحا التماس الدنيا ، صوما أو صلاة أو تهجد بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله التماس الدنيا ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وهكذا روى عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد . وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيتته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يقضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجارى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة . قال

تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتيه منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾

[الغوري: ٢٠]

﴿ أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّهِ . وَسَلَّوْهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ . كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . وَمَن يَكْفُرْ بِهِ . مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية [الروم: ٣٠] ، وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه ويصرّانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّن فيها من جدعاء ؟» (١) . وقوله: ﴿ وَبَيِّنْهُوَ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أى : وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الانبياء، من الشرائع المطهرة المكتملة العظيمة المحتسمة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَبَيِّنْهُوَ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إنه جبريل عليه السلام . وعن عليّ ، والحسن ، وقناة: هو محمد ﷺ . وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما ، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ أى : ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أى : أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم . فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى : ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى : ﴿ لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف: ١٥٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ . وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (٢) .

قوله : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى : ﴿ التَّوْحِيدُ . نَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١ ، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ التَّوْحِيدُ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١ ، ٢] . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَلَطَّفْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَكْفُرُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٢٠] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتُونَهَا عَوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق ، من الملائكة ، والرسل ، والأنبياء ، وسائر البشر والجان ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت أخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أخفها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ . أخرجه البخاري ومسلم (١) .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتُونَهَا عَوَجًا ﴾ أي : يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة ﴿ وَيَعْتُونَهَا عَوَجًا ﴾ أي : ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها . ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : بل كانوا تحت قهره وعظيبتة ، وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ، ولكن ﴿ يَوْمَ نَخْتَصِمُ بِهِمُ الْأَبْصَارَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] ، وفي الصحيحين : « إن الله ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذ له لم يقله » (٢) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية أي : يضاعف عليهم العذاب ، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، بل كانوا صمًا عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زِنَاتَهُمْ عَذَابٌ لَّهُمْ فَرَقَ الْعَذَابُ ﴾ الآية [النحل: ٨٨] ، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه ، وعلى كل نهى ارتكبهوه ؛ ولهذا كان اصحّ الاقوال انهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : خسروا أنفسهم لانهم ادخلوا ناراً حامية ، فهم معذبون فيها لا يفتّر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا حَتَّ ذِقَانَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الاسراء: ٩٧] . ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : ذهب عنهم ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من دون الله من الانداد والاصنام ، فلم تُجد عنهم شيئاً ، بل ضربتهم كل الضرر ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَسِبَ النَّاسُ أَنَّهُمُ أُكْفِرُوا وَكَانُوا

(١) المسند (٢/٧٤) ، والبخاري (٤٦٨٥) ، ومسلم (١٧٦٨/٦٤) .

(٢) البخاري (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣/٦١) .

بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» [الاحقاف: ٦] ، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١ ، ٨٢] ، وقال الخليل لقرمه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بَعْضًا مِمَّا وَكَّمْتُمُ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [التكوير: ٢٥] ، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّاهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرمهم ودمارهم ؛ ولهذا قال : ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم أن، وعن الحور العين بطعام من غسّلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورويته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الآخرون .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾  
 ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الاعمال الصالحة قولاً وفعلاً ، وبهذا ورثوا الجنات ، المشتعلة على الغرف العاليات ، والسرر المصقوفات ، والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والنظر إلى خالق الارض والسماوات ، وهم فى ذلك خالدون ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا يتفطون ، ولا يمشطون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين ، فقال : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى : الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السعداء ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع . فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا ، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج ، فلا يسمع ما يتنفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ لِهَيْبَتِهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية [ الانفال: ٢٣ ] ، وأما المؤمن ففطن ذكى لبيب ، بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع الخير ويترك الشر ، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ .

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ : أفلا تعتبرون تفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قال فى الآية الاخرى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا النُّورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الْأُمُوتُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ وَمَا أَنْتَ بِسَمِيعٌ مِنْ فِي الْقُبُورِ . إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤] .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ لِيُنذِرَهُمْ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ السَّعِيرِ ﴿٢٥﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْثُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرْثُكَ أَتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، وكان اول رسول بعثه الله إلى أهل الارض من المشركين عبدة الاصنام انه قال لقرمه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى : ظاهر التنذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ؛ ولهذا قال : ﴿إِن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أٰبِهٖم﴾ أى إن استمررتم



مجلسها خاصا، فانزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الانعام: ٥٢]، ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ تَبْنَا أَنَسِ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الانعام: ٥٣].

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ] ﴿

يخبرهم انه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم انه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما اطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين يحضرونهم وتزدرونهم: انه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطنا، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما أسوأ، لكان ظلما قاتلا ما لا علم له به.

﴿ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَدْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّمَا بَأْسِكُمْ بِهٖ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿ قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ﴾ أى: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿ فَاِنَّا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى: من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعوه ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾. قال إنما بآئكم به الله إن شاء وما أنتم بمُعْجِزِينَ ﴿ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴾ ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى: أى شئ يَجِدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاضِي لَكُمْ وَإِنذَارِي لِإِيكُم وَنُصْحِي، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ إِغْوَاءَكُمْ وَدِمَارَكُمْ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: هو مالك أزيمة الامور، والمتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴿٣٤﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكدا لها، مقرر لها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافعله من عنده ﴿ قُلْ إِنْ افَرَبْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي ﴾ أى: فإثم ذلك على ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى، لاني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٦﴾ وَبَصَّعُ الْفُلَکَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٧﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ بِأَنِيهِ عَذَابٌ مُّخْزٍ وَمَنْ حِجْلٌ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٨﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومُه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخيراً عنه أنه قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا ﴾ [نوح: ٢٦] ، ﴿ فِدْعَا رَبِّهٗ أَنِّي مَلْغُوبٌ فَانصُرْ ﴾ [القم: ١٠] ، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّامُنْ ﴾ ، فلا تحزن عليهم ولا يهْمُنكَ أمرهم. ﴿ وَاصْبِرْ لِفُلْكَ ﴾ يعني: السفينة ﴿ بَاعْتَبْنَا ﴾ أى: بمرأى منا ﴿ وَوَحِينَا ﴾ أى: تعليمنا لك ما تصنعه ، ﴿ وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَاصْبِرْ لِفُلْكَ وَكَلِّمْنَا مَنْ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ أى: يهزون به ويكذبون بما يتوعدكم به من العرق ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد ، وتهديد أكيد ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى : يهينه في الدنيا ﴿ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُبِينٌ ﴾ أى: دائم مستمر أبداً .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْنَا الْقَوْلَ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ﴿٤٠﴾

هذه مُواعِدة من الله تعالى لنوح، عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتابعة، والهتان الذى لا يُقْلَع ولا يُفْتَر، بل هو كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْوَاحِ وَوَدُسْرَ . نَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ [القم: ١١ - ١٤] .

وأما قوله: ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ فمن ابن عباس: التنور: وجه الأرض، أى: صارت الأرض عيوناً تغور، حتى فار الماء من التنائير التي هي مكان النار، صارت تغور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف .

فحينئذ أمر الله نوحاً، عليه السلام، أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: وغيرها من النباتات - اثنين . ذكراً وأنثى .

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أى: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرباته، إلا من سبق عليه القول منهم، ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله. ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أى: من قومك ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى: نَزَرَ يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فمن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأخبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل: كانوا عشرة . والله أعلم واحكم .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْعُهَا وَمُرْسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلِي يَغْشَىٰ مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعًا وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح، عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة: ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَأَهَا وَمَرْسَاهَا ﴿٤٤﴾ : أى : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رسوها .

وقال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَقُلِ رَبِّ أُنزِلْنِي مَوْزِلًا مَبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨ ، ٢٩] ؛ ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الامور : عند الركوب على السفينة وعلى الدابة ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَيْسُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢ - ١٤] ، وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه ، كما سيأتى فى سورة «الزخرف» ، إن شاء الله . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم اجمعين ذكر أنه غفور رحيم ، كما قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الاعراف : ١٦٧] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] ، إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين انتقامه ورحمته .

وقوله : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ أى : السفينة سائرة بهم على وجه الماء ، الذى قد طُبِقَ جميع الارض ، حتى طفت على رؤوس الجبال ، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كتفه وعنايته ، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُم فِي الْجَارِيَةِ . لَنَجْعَلَنَّهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَتَعِبَهَا أَلَدًا وَأَعْيَةً ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتُهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَرْوَاحِ وَدَسْرٌ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفِرًا . وَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴾ [المقرئ : ١٣ - ١٥] .

وقوله : ﴿ وَتَادَىٰ نُوحَ ابْنَهُ ﴾ الآية : هذا هو الابن الرابع ، واسمه «يام» ، وكان كافرا ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون ﴿ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَهَنَّمَ بَعْصِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاة ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح ، عليه السلام : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ﴾ أى : ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسَمَاءِ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿ وَغِيصَ الْمَاءِ ﴾ أى : شَرَحَ فى النقص ، ﴿ وَفُصِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى : فرغ من أهل الأرض قاطبة ، عن كفر بالله ، لم يبق منهم دينار ﴿ وَأَسْتَوَتْ ﴾ السفينة بمن فيها ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ قال مجاهد : وهو جبل بالجزيرة ، تشامت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . وقال قتادة : استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها ، قال قتادة : قد أبقي الله سفينة نوح ، عليه السلام ، على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكمن من سفينة قد كانت بعدها فهلكت ، وصارت رمادا . وقال الضحاک : الجودى : جبل بالموصل . وقال بعضهم : هو الطور .

وقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : هلاكاً وخساراً لهم ، وبعداً من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا

عن آخرهم ، فلم يبق لهم بقية .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾  
 قَالَ يَنْتَوِيحُ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْطَأْتُكَ أَنْ  
 تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي  
 وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعمال وكشف من نوح ، عليه السلام ، عن حال ولده الذي غرق ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ أَبِي مِنْ  
 أَهْلِي ﴾ أي : وقد وعدتني بنجاة أهلي ، ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين ؟  
 ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أي : الذين وعدت إنجاءهم ؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ؛  
 ولهذا قال : ﴿ وَأَهْلُكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ [هود : ٤٠] ، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالفرق  
 لكفره ومخالفته آياه نبي الله نوحا ، عليه السلام .

وقد نص غير واحد من الائمة هلى تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه ، وإنما كان  
 ابن زنية . وقال ابن عباس ، وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبي قط ، قال : وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ  
 أَهْلِكَ ﴾ أي : الذين وعدت إنجاءهم . وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، فإن الله  
 سبحانه أكبر من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ، ولهذا غضب الله هلى الذين رموا أم المؤمنين عائشة  
 بنت الصديق روج النبي ﷺ ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ؛ ولهذا قال تعالى :  
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُمْ شُرَكَاءَ لَكُمْ بَلْ هُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى  
 كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قُلْ مَا كُنْتُ بِكُمْ بِشِيرًا وَلَا  
 كَارِهُنَّ أَهْلًا ﴾ [النور : ١١ - ١٥] . وقال ابن عباس : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية . قال عكرمة :  
 في بعض الحروف : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ .

﴿ قِيلَ يَنْتَوِيحُ أَهْبَطْ يَسْكُنْ مِثْرًا وَيَرْكَبْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّهِ فَمَنْ مَعَكَ وَأُمُّهُ وَسَمَّيْتَهُمْ بِمِثْمِهِمْ  
 وَمِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح ، عليه السلام ، حين أرسى السفينة على الجودي ، من السلام عليه ،  
 وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة . وقال ابن إسحاق : ولما أراد أن  
 يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض ، فسكن الماء ، وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء ، يقول  
 الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْيَعِي مَائِكَ ﴾ الآية ، فجعل الماء ينقص ويفيض ويُدْبِرُ ، و﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ  
 مِنَّا ﴾ الآية .

﴿ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ  
 لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : هذه القصة وأشباهاها ﴿ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ ﴾ يعني : من أخبار الغيوب السالفة  
 نوحيا إليك على وجهها ، كأنك شاهدها ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أي : نعلمك بها وحيا منا إليك ﴿ مَا كُنْتَ

تعلّمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴿ أي : لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ونحوطك بمعانينا ، ونجعل العاقبة لك ولاتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إنا لننصرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية [ غافر : ٥١ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِلْمُرْسَلِينَ . إِنَّمَا لَهُمْ الْمُصَوِّرُونَ ﴾ الآية [ الصافات : ١٧١ - ١٧٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعِيدُوا لِلَّهِ مَالَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾  
يَقُولُونَ لَا سَنَلْكَم عَلَيْهِ بَحْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ  
ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبُرُودًا وَيُزَيِّدْكُمْ قُوَّةَ إِلِكُمْ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا ﴿إني عادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم اجرة على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير اجرة .

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة بسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ، ولهذا قال : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح : ١١] ، وفي الحديث : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (١) .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾  
إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥١﴾ مِن دُونِهِ  
فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون ﴿٥٢﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي  
عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنيهم : ﴿ ما جئنا ببينة ﴾ أي : بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أي : بمجرد قولك : « اتركوهم » نتركهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي : بمصدقين ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون . من دونه ﴾ ، يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام ، ﴿ فكيدوني جميعا ﴾ أي : أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي : طرفة عين .

وقوله : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذَةٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم . وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة

ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالى ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنِّي رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ إِنَّا ءَعَادُوا كُفْرًا رَبَّهُمْ ۖ إِنَّا بَعْدَ إِعَادِكُمْ قَوْمٌ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ، فقد قامت عليكم الحجة بلبلاهي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالى بكم ، فإنكم لا تضرونه بكم ، بل يعود ويأل ذلك عليكم ﴿ إِنِّي رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم ، فاهلكهم الله عن آخرهم ، ولحقى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه. ﴿ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لانه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ : تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلهمنا أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ أَلَا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ الآية . قال السدي: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿ وَإِنِّي لَأَمْرٌ مُّؤَدِّئٌ لِّأَهْلِكُمْ صَلِحًا قَالَ يَتَقَوَّمِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِنَّ رَبِّي لَقَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿ إلى نوح ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أَهْلَهُمْ صَالِحًا ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ؛ ولهذا قال: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى: ابتدا خلقكم منها، خلق منها أبائكم آدم ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى: جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إِنِّي رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّمَا سَأَلْتُ عِبَادِي عَنِّي فإِنِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦] .

﴿ قَالُوا لِيَصْلِحْ فَذَكَّرْنَا فَمَا رَجَعُوا إِلَيْهِ هَذَا أَنَّهُمْ إِذْ قَالُوا مَا يَتَّبِعُنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَتَّبِعُونَ ءَابَاءَنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمِرُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَإِنِّي مِّنكُمْ رَحِمَةٌ فَمَنْ يُضِلُّ رَبِّي فَمَا يَمْلِكُ أَن يَضِلَّ رَبِّي فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من

الجهل والعدا في قولهم: ﴿ قَدْ كُنْتَ لَنَا مُرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى: كنا نرجوك في عقلك قبل ان تقول ما قلت! ﴿ أَتَهَانَانُ أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ وما كان عليه اسلافنا ﴿ وَأَنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ أى: شك كثير .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ نَهْجٍ مِّن رَّبِّي ﴾ فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وَأَتَانِي مِّن رَّبِّي رَحْمَةٌ فَمَنِ يُنصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتمونى ﴿ غَيْرِ تَخْسِيرٍ ﴾ أى: خسارة .

﴿ وَيَتَقَوَّمِرْ هَٰذِهِ نَافَةَ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُّوہَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَصَاحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيصِينَ ﴾ ﴿ كَانَ لَمْ يَنْتَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنْ سَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِشُؤْمِهِمْ ﴾

تقدم الكلام عليها في سورة « الاعراف » (١) بما اغنى عن إعادته فله الحمد والمنة .

﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا لَسْنَا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَنِينٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِهِ يَسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ﴿ قَالَتْ يَبْئُوتَنِي ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ﴿ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكَّبْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وهم الملائكة ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ ﴾ قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ نَجَّيْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤]، ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى: عليكم. ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَنِينٍ ﴾ أى: ذهب سريعاً، فاتاهم بالضيافة، وهو عجل: فنى البقر، حنيد: مشوى على الرضف، وهى الحجارة المحمأة. هنا معنى ما روى عن ابن عباس، وقتادة وغير واحد، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ لِنَجَاءِ لِنَجَاءِ بِعِجَلٍ سَمِينٍ . فَفَرَّهَ إِلَيْهِمْ قَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الدريات: ٢٦، ٢٧]. وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ﴾ تنكرهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك ان الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهون ولا يأكلونه؛ فلماذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكروهم ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أى قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى

قوم لوط لتهلكهم . فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم ، لكثرة فسادهم ، وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهدا جوريت بالبشارة بالولد بعد الإياس . قال ابن عباس : ﴿ فضحكت ﴾ أى : حاضت . ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى : يولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ؛ فإن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال فى آية البقرة : ﴿ ا م كُتِمَ شُهَدَاءُ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] . ومن هاهنا استدل من استدلك بهذه الآية ، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده . ووعده الله حق لا خُلفَ فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها وأبينه ، والله الحمد .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ الآية : حكى قولها فى هذه الآية ، كما حكى فعلها فى الآية الأخرى ، فإنها ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ وفى الذاريات : ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ لِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩] ، كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن وأفعالهن عند التعجب . ﴿ قَالُوا أَنْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ أى : قالت الملائكة لها : لا تعجبى من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن » فيكون ، فلا تعجبى من هذا ، وإن كنت عجوزاً عقيماً ، ويملك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير . « رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أى : هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ، مجد فى صفاته وذاته ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يارسول الله ؟ قال : قولوا : « اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْتَدِلًا فِي قَوْرِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ أَوْهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٦﴾ يَبْتَازُهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابٍ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم ، عليه السلام ، أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة ، حين لم يأكلوا ، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا حتى بلغ خمسة قالوا : لا ، قال : أرايتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيننه وأهله إلا امرأته ﴾ الآية [المنكوت: ٣٢] ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وقوله : ﴿ إن إبراهيم لَكَلِيمٌ أَوْهٌ مُنِيبٌ ﴾ مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها (٢) .  
وقوله تعالى : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ﴾ الآية ، أى : إنه قد نفذ فيهم القضاء ،

وَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ بِالْهَلَاكِ ، وَحُلُولِ الْبَاسِ الَّذِي لَا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ .

﴿ وَكَلَّمَآ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا : يَوْمَ وَسَّاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَتْهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٩﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بِنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَلْعَالَمِ مَا تُرِيدُ ﴿٨٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة . فانطلقوا من عنده ، فاتوا لوطا ، عليه السلام ، في أرض له ، وقيل : في منزله ، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فسأه شأنهم وضاعت نفسه بسبيهم ، وخشى إن لم يُضِفهم أن يُضِفهم أحد من قومه ، فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ، ويشق عليه ذلك . وقال السدي : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقى ، فقالوا : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وقررت عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : يا إيتاه ، أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحهم ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال . فجاء بهم ، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجاؤوا يهرعون إليه .

وقوله : ﴿ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى : لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ : يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النسي للامة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، كما قال لهم في الآية الاخرى : ﴿ أَنَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] ، وقوله في الآية الاخرى : ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٠] أى : ألم تنهك عن ضيافة الرجال ﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧١ ، ٧٢] ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته . وقال ابن جرير : أمرهم أن يتزوجوا النساء ، لم يعرض عليهم سفاحا .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي ﴾ أى : اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى : فيه خير ، يقبل ما أمره به ، ويترك ما أنهاه عنه ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بِنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴾ أى : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانستهيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ أى : ليس لنا غرض إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأى حاجة في تكرار القول علينا في ذلك ؟ قال السدي : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴾ : إنما نريد الرجال .

﴿ قَالَ لَوْ أَنِّي لَبِئْتُمْ قُوَّةَ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ يِقْطَعُ مِنَ الْآيِلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنِّي لَبِئْتُمْ قُوَّةَ﴾ الآية، أى: لكنك نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى، ولهذا ورد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى: الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه» (١). فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لاوصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، وأمره أن يسرى بأهله من آخر الليل، وأن يتبع أدبارهم، أى: يكون ساقط لاهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين. ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾: هو استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ﴾.

ثم قرّبوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِن مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يداقمهم ويردهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه، فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ ﴿٨٢﴾ الْآيَةَ [ القمر: ٣٧ ]

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ سَافِلِهَا وَأَمَّطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهٍ مِّنَ الْقُلُوبِ بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهى قرينتهم سنوم ﴿سَافِلِهَا﴾ كقوله: ﴿فَفَشَّاهَا مَا عَشَّى﴾ [ النجم : ٥٤ ] أى: أمطرننا عليها حجارة من «سجيل»، وهى بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةٌ مِّن طِينٍ﴾ [ الذاريات : ٣٣ ] أى: مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية، وقال البخارى: «سجيل»: الشديد الكبير، سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان (٢).

وقوله: ﴿مَنْضُودٌ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك. وقال آخرون: أى: يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم. وقوله: ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ أى: معلّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، فقتلهم الحجارة من سائر

(٢) فتح البارى (٨/ ٣٥٢).

(١) الترمذى (٣١١٦)، وقال: «حديث حسن».

البلاد ، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرّحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفاهم، وكان حملهم على خوافي جناحه اليمين. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وعن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحوأها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات النامس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودَمَدَمَ بعضها على بعض، فجعل عليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣] ، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: في القرى حجارة من سجيل .

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ أي: وما هذه النعمة عن تشبه بهم في ظلمهم ، بعيد عنه.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قرياً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً ؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إِنِّي أَرَانَكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف ان تُلَبَّوْا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿ وَيَقَوْمِ أَزِفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقَسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿ يَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله . وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: «الهلاك» في العذاب، وال«بقيّة» في الرحمة. وقال ابن جرير: ﴿ يَقِيَتْ اللَّهُ ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿ خَيْرَ لَكُمْ ﴾ أي: من أخذ أموال الناس، قال: وقد روى هذا عن ابن عباس. قلت: ويشبه قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَيْبُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْغَيْبِ ﴾

[المائدة: ١٠٠]

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: برفيق ولا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه

ليراكم الناس، بل لله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَدْعُنِيَّ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم ، قبحهم الله : ﴿ أصلاتك ﴾ قال الاعمش : اى : قراءتك ﴿ تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ﴾ اى : الاوثان والاصنام ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ ، فترك التطفيف على فولك : هى أموالنا نفعل فيها ما نريد . قال الحسن فى قوله : ﴿ أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ﴾ : اى والله ، إن صلته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . وقال الثورى فى قوله : ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ : يعنون الزكاة .

وقولهم : ﴿ إنك لانت الحليم الرشيد ﴾ : قال ابن عباس وابن جرير وغيرهما : يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُ آرَهُ يَتَشَرُّ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم : أرايتم يا قوم ﴿ إن كنت على بيتى من ربى ﴾ اى : على بصيرة فيما ادعو إليه ﴿ ورزقنى منه رزقا حسنا ﴾ ، قيل : اراد النبوة . وقيل : اراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال الثورى : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهيتكم عنه ﴾ اى : لا أنهاكم عن شىء وأخالف أنا فى السر فافعله خفية عنكم ، كما قال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن امر واركيه ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ اى : فيما أمركم وأنهاكم ، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿ وما توفيقى ﴾ اى : فى إصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وإليه أُنِيب ﴾ اى : أرجع .

وروى أحمد عن يهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : أخذ النبى ﷺ ناساً من قومي فى نهمة فحبسهم ، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقال : يا محمد ، علام تحبس جبريتى ؟ فصمت رسول الله ﷺ [عنه] فقال : إن ناساً يقولون : إنك تنهى عن الشر وتستخلى به ، فقال النبى ﷺ : « ما يقول ؟ » قال : فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها ، فقال : « أو قد قالوها - أو : قائلها منهم - والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم ، خلوا له عن جبراته » (١) . ومن هذا القبيل الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان : قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فإنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكروه قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فإنا أبعدهم منه » (٢) . هذا إسناد صحيح ، ومعناه - والله أعلم - : مهما بلغكم عنى من خير فإنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فإنا أبعدهم منه ﴿ وما

(١) المسند (٢/٥) ، ورواه الترمذى - مختصراً - (١٤١٧) وقال : « حديث حسن » ، وما بين المعقوفين من المسند .

(٢) المسند (٤٩٧/٣) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١/١٥٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

أرهد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

وقال أبو سليمان الضبي : كانت نجينا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي ، فيكتب في آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿

يقول لهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي : لا تحملنكم عداوتي وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النعمة والعذاب .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ معنى : إنما اهلكوا بين أيديكم بالامس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الامران ، ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي : استغفروهم من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أي : لمن تاب وأناب .

﴿ قَالُوا يَنْشُئُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَهْطَى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَخَذَ شَوْهَهُ وَرَأَاهُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿

يقولون : ﴿ يَا شُعْبُ مَا نَفَقَهُ ﴾ أي : ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ . قال السدي : أي أنت واحد . وقال أبو روق : يعنون : ذليلا ؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أي : قومك وعشيرتك ؛ لولا معزة قومك علينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قيل : بالحجارة ، وقيل : لسبيك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴾ أي : ليس لك عندنا معزة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ يقول : أتتركوني لأجل قومي ، ولا تتركوني إعظاما لجناب الله أن نالوا نبيه بمساءة ، وقد اتخذتم جانب الله ﴿ وَرَأَاهُمْ ظَهْرِيًّا ﴾ أي : نبذموه خلفكم ، لا تطيمونه ولا تعظمونه ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أي : هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم بها .

﴿ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا نَجِينًا شُعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينًا ﴿ كَانَ لَرَبِّنَا فِيهَا الْأَبَدُ لِمَنْ كَمَا بَعَدَتْ سَاعِدٌ ﴿

لما ينس نبى الله شعيب من استجابتهم له ، قال : ﴿ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : على طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ، ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على طريقتى ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُعْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ﴾ أي : منى ومنكم ﴿ وَأَرْتَقِبُوا ﴾ أي : انتظروا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا نَجِينًا شُعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْئَةَ فَاصْبَحُوا فِي

دِيَارِهِمْ جَالِسِينَ ﴿٩٦﴾ أى: هاملين لاجترآك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صبيحة ، وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، ففى الأعراف لما قالوا: ﴿نُخْرِجُكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلّموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أسأوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ناسب ذكر الصبيحة التى استلبشهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿ فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، قال: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة ، والله الحمد والمئة كثيراً دائماً .

وقوله: ﴿ كَانَ لَمْ يَتَقُوا فِيهَا ﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك ، ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم .  
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ فَأَنجَبُوا أُمَّرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أُمَّرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٨﴾ يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴿٩٩﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْرِفْدَ الْمَرْفُودُ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى ، عليه السلام ، بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ، وهو ملك القبط وملكه ﴿ فَأَتَّبِعُوا أُمَّرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الفى ﴿ وَمَا أُمَّرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، وله فى ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبَهْلًا ﴾ [الزمل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ . ثُمَّ أَثْبَرَ يَمْعَنُ . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقال أَنَا رَبُّكُمْ الأعلى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ والأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [النارعات: ٢١ - ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ يَقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴾ ، وكذلك شأن المتبعين يكونون مؤفرين فى العذاب يوم المعاد ، كما قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِن لَّا تَقْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨] ، وقال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون فى النار: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأُخْذُوا لَنَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا أَنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب: ٦٧ ، ٦٨] .

وقوله: ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْرِفْدَ الْمَرْفُودُ ﴾ أى: اتبعناهم زيادة على ما جارىناهم من عذاب النار لعنة فى هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْرِفْدَ الْمَرْفُودُ ﴾ قال مجاهد: ريدوا لعنة يوم القيامة، فنلك لعنتان. وقال ابن عباس : ﴿ يَسَّ الْرِفْدَ الْمَرْفُودُ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحاك، وقتادة ، وهو كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْخُلُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَّا يُنصَرُونَ . وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْرُوبِينَ ﴾ [القصاص: ٤١ ، ٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الَّذِينَ نَقُصُّمْ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٢﴾

لما ذكر تعالى خبر هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أمهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال : ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى ﴾ أى : أخبارهم ﴿ نَقَصْنَا عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمًا ﴾ أى : عامر ﴿ وَحَصِيدًا ﴾ أى : هالك ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أى : إذ أهلكناهم ﴿ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ ﴾ أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مانفوعهم ولا انقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى : غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها ، فهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نعمل ﴿ إِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ شَيْءًا ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفكته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية (١).

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴿ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴾  
يقول تعالى : إن فى إهلاكنا الكافرين وإغنائنا المؤمنين ﴿ آيَةً ﴾ أى : عظة واعتبارا على صدق موعودنا فى الآخرة ﴿ إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غانر: ٥١] ، وقال تعالى: ﴿ فَأَوْسَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣، ١٤].

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أى : أولهم وآخرهم كقوله : ﴿ وَحَشْرَانَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى : عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴾ أى : ما تؤخر إقامة القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضائه وقلده ، فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ ﴾ أى : لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا يتقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يقول: يوم يأتى يوم القيامة، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الآية [طه: ١٠٨] ، وفى الصحيحين من حديث الشفاعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ » (٢).

وقوله: ﴿ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴾ أى : فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد، كما قال: ﴿ فَرِيقٌ فِي النَّجَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]. ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء، فقال:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَأَلَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر أى: تنفسهم زفير، وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياداً بالله من ذلك. ﴿خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: «هذا دائم دوام السموات والأرض»، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كلمة: «أبداً»، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصرى في قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا سَأَلَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا سَأَلَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، [نقل كثيراً منها ابن جرير واختار ما روى] عن ابن عباس والحسن: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حين يشفون في أصحاب الكباير، ثم تاتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة. وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة. وقال السدى: هي منسوخة بقوله: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [النساء: ٥٧].

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَأَلَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ أى: فما واهم الجنة، ﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾ أى: مقيمين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَأَلَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجبا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك، والحسن البصرى: هي حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ أى: غير مقطوع، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [مرد: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود

بقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٌ ﴾ .

وقد جاء في الصحيحين : « يؤتى بالموت في صورة كَيْشٍ أَمْلَحٍ ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلّود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلّود فلا موت » (١) . وفي الصحيح : « يقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تتعموا فلا تبأسوا أبداً » (٢) .

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَبْعُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَبْعُدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنهُ مَرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كَلَّا لَمَا لِيَُوَفِّيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَسِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فلا تك في مريّة فيما بعد هؤلاء ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أي : ليس لهم مُستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عباس : ﴿ وإنا لمؤفّوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ ، قال : ما وعدوا فيه من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لمؤفّوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب ، فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ، ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيبنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك . ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم . ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، فإنه قد قال في الآية الأخرى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى . فاضبر على ما يقولون ﴾ [طه: ١٢٩ ، ١٣٠] . ثم أخبر أن الكافرين في شك - مما جاءهم به الرسول - قوى ، فقال : ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ [٣] .

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ، ويجزيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فقال : ﴿ وإن كلاً لَمَا لِيَُوَفِّيْتَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي : عليم بأعمالهم جميعاً ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على

(٢) مسلم (٨/٢٨٣٧) .

(١) البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٤٠/٢٨٤٩) .

(٣) ما بين المعرفتين ساقط من الطبعة ، وأثبتناه من المخطوطة .

النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان، وهو البغى، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: ﴿ وَلَا تَوَكَّلُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، أى: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بياقى صنيعهم ﴿ لَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أى: ليس لكم من دونه من ولى ينقذكم ، ولاناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾  
﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره .

وقوله: ﴿ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء. وقال الحسن - فى رواية - يعنى: المغرب والعشاء. وكذا قال قتادة، والضحاك وغيرهما: إنها صلاة المغرب والعشاء. وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها. وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الصحيحين عن عثمان بن عفان: أنه تروضا لهم كوضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال: هكذا رايت رسول الله يتروضا، وقال: «من تروضا نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ماتقدم من ذنبه» (١). وفى الصحيح عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرايتم لو أن بياب أحدكم نهراً غمراً يقتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب والخطايا» (٢). وروى مسلم عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتبت الكبائر» (٣). وروى البخارى عن ابن مسعود؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً، فأتى النبی ﷺ فأخبره، فانزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل: ألى هذا يا رسول الله؟ قال: «لجميع أمتى كلهم». ورواه مسلم، وأحمد، وأهل السنن إلا أباً داود (٤). وروى الإمام أحمد عن أبى ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن» (٥).

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهَوَّتْ عَنِ السَّوَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا ﴾

(١) البخارى (١٥٩) ، ومسلم (٣٣/٢٤٥) . (٢) البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٢٨٣/٦٦٧) .

(٣) مسلم (١٤/٢٣٣) .

(٤) المسند (١/٣٨٥) ، والبخارى (٥٢٦) ، (٤٦٨٧) ، ومسلم (٣٩/٢٧٦٣) ، والترمذى (٣١١٤) .

(٥) المسند (٥/١٥٣) ، والحديث رواه الترمذى (١٩٨٧) ، وقال: «حسن صحيح» .

مِنْهُمْ وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِمَنْظَرٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، يتهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين اتجاهاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نعمته؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» (١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَأَتَّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجاهم العذاب ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. إلا من رحم ربك ﴿أى﴾: ولا يزال الخلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افتترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصرارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى» (٢). وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى - فى رواية عنه -: وللإختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقيل: للرحمة خلقهم. وعن

(١) المسند (٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذى (٣٠٥٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) راجع تخريجه عند تفسير الآية (٩٣) من سورة يونس.

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب . وكذا قال مجاهد والضحاك وقادة . ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقيل : بل المراد : للرحمة والاختلاف خلقهم ، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ . وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال : الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ ﴾ ، فمن رحم ربك غير مختلف . قيل له : فلذلك خلقهم ؟ قال : خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه . وقال ابن وهب : سألت مالكا عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ . وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال : فريق فى الجنة وفريق فى السعير . وقد اختار هذا القول ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَنُتِّمَ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن من خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملا جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة . وفى الصحيحين عن ابى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضَعْفَةُ الناس وسَقَطُهُمْ ؟ وقالت النار : أوثرت بالمكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابى ، أنتقم بك عن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فاما الجنة فلا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، واما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قَطُّ قَطُّ ، وعزتك » (١) .

﴿ وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك ، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أهمهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين - كل هذا مما ثبت به فؤادك - يا محمد - أى : قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبا صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد : ﴿ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى : على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾ أى : على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ أى : فستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقد أنجز الله لرسوله وعده ، ونصره وأيده ، وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم .

﴿ وَيَلْوِ عَنُوبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والارض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والامر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه. وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .